قراءة في عنوان الكتاب الادبي القديم

الاستاذ المساعد الدكتور
ثائر عبد الزهرة لازم البصير
جامعة البصرة/ كلية الآداب

الملخص:

تعد هذه الورقة محاولة للشروع بدراسة العنوان في الكتاب الأدبي القديم ،إذ أخذت على عاتقها تبني بعض الرؤى والأفكار والتصورات وصولاً إلى تحقيق المنجز الإبداعي للعنوان ، ذلك بالاعتماد على معطيات النص ذاته ، والتي ضمنت له الحضور والاستمرار، و من ثم بيان الأنماط التي يتأسس في ضوئها العنوان في الكتاب الأدبي القديم ومدى التلاؤم بينه وبين مضمونه، والكشف عما يحمله من أواصر وصلات خفية، فضلاً عن بيان أهمية العنوان لدى المؤلف العربي القديم . حاثاً طلبة الدراسات العليا الأعزاء على تناول هذا الموضوع في رسائلهم أو اطاريحهم لأنه بحاجة إلى فتح كل ما بقي مستغلقاً منه وعصياً على الباحث القيام به لضيق المقام، أو لاعتماده منهجاً يقوم على وجهة النظر الشخصية المستقاة من فهم يستند على النصوص ذاتها .

A study of the title in the ancient literary book

Asst. Prof Tha'er Abid Al-Zahraa
University of Basra / College of Arts

Abstract :

This research paper is considered as an attempt to start studying the title in the ancient literary book .It undertook adopting some visions ,ideas and conceptions to approach the creative act of title depending on the information that text gives itself which guaranteed its duration and existence .Then stating the sorts by which the title in the ancient literary book is established and the accordance between the text and its content ,discovering the hidden links and relationships besides explaining the importance of the title to the ancient Arabian composer to motivate the students of the higher studies to deal with this subject in their researches and thesis because this subject, the title in the ancient literary book, is in need of uncovering the mysterious things of it which the scholars couldn't find out for the lack of sources and the personal point of view , which the scholars adopted depending on understanding the texts itself.

توطئة:

لم يكن العرب القدماء في غفلة من العنوان وهم يؤلفون كتبهم بل على العكس من هذا نجدهم مبدعين فيه بالقدر الذي يوازي إبدا

عهم في تأليف الكتب والمصنفات المختلفة ،إذ حرصوا على بيان ما يتعلق بمسألة العنوان في مقدمة كتبهم أو ما تسمى بخطبة الكتاب آنذاك .ولعل عدداً كبيراً من العناوين العربية تدل على أنها لم تكن صناعة مرتجلة وإنما كانت تنطوي على جوانب كثيرة من الجهد والتفكير والعناء، إذ حظيت هذه المسألة بعناية بعض الكتّاب فراحوا يضعون فيها كتباً مستقلة وافرة الثراء بالعناوين التي رصعت فضاء الحضارة العربية ،ولا أدل على ذلك كتاب {الفهرست }لابن النديم(ت٣٨٥هـ)، وكتاب{كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون} لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ)، وغيرهما . ومن هذا المنطلق وجدت نفسي أمام موضوع بحاجة إلى تسليط الضوء عليه من جهة ولفت نظر الدارسين إليه من جهة أخرى بحيث يمكن الإفادة منه في دراسة العنوان دراسة شاملة و مستوعبة لجوانبه كافة . ولا يخفى على القارئ المتتبع ما يدور في المناقشات المتعلقة برسائل الماجستير و أطاريح الدكتوراه من أن العنوان يحتل المرتبة الأولى لدى المناقشين بوصفه المدخل الأول الذي يستطيع من خلاله القارئ تحضير أفق الانتظار،أو أفق التوقعات لأنه قد اعد سلفا. العنوان إذن هو الثريا التي تضيء فضاء النص،وتساعد على استكشاف أغواره فيكون العنوان بكل ذلك ضرورة كتابية تساعد على اقتحام عوالم النص، لأن المتلقي يدخل إلى العمل من بوابة العنوان . هذا وما أود الإشارة إليه في هذا المقام هو قلة الدراسات النقدية في عنوان الكتاب الأدبي القديم الأمر الذي دفع بنا إلى محاولة قراءة العنوان قراءة استكشافية من أجل سبر أغواره بإبراز قيمه الموضوعية و الفنية معتمداً في ذلك وجهة النظر الشخصية على وفق رؤية فكرية تربط العنوان بالنص الذي ينتمي إليه ضمن واقعه الثقافي من جانب وبظاهرة التأثير والتأثر من جانب آخر. ومن الله سبحانه و تعالى التوفيق .

إنَّ عنوان الكتاب جزء لا يتجزأ من إبداعه ،الأمر الذي يدل على أنه يقبل أن يكون موضوعاً للتحليل والدرس بوصفه أداة سلطوية تنظم قراءته وتوجهها، ولقد تمكن العنوان من تأسيس قيمته الحضارية منذ ظهور فن الطباعة عند الغرب، أما بالنسبة للعرب فقد احتل العنوان قيمته الحضارية منذ عصر التأليف، فقد أصبح وسيلة من وسائل تنظيم المعرفة وضبطها وصار لصفحة العنوان أهمية قصوى نظراً إلى ما تحتويه من معطيات تساوي النص فيما يرى كوبنيون[١] .

و لعل المتتبع مسيرة التأليف عند العرب يجد أنَّ عنوان الكتاب الأدبي القديم قد مرَّ بمراحل مختلفة، وكأنّ هذهِ المراحل تتناغم مع مراحل تطور الشعر العربي فكما أن الشعر بدأ بالمطبوع ثم المصنوع ثم الإفراط بالمصنوع ، وجدنا المؤلفين العرب قد تأثروا بما ساد من ثقافات شهدتها عصورهم فراحوا ينسجون عناوينهم بحسب ما توافر لهم منها متأثرين بها تأثراً شديداً لاسيما ثقافة الشعر والأدب التي أخذت تتطور بفعل التغيير الزماني والمكاني والذي نعني به الانتقال من البداوة إلى الحضارة . و من هنا يؤسس العنوان بذاته نسقاً أو نظاماً خاضعاً لتغيير أساليب الذوق خلال مرحلة زمنية ما،أو في محيط جغرافي ما بحيث يمكن أخذ كل ذلك بعين الاعتبار عندما نرغب في فهم آليات اشتغاله لغوياً و سوسيولوجيا . و يبدو أنَّ المؤلف العربي وهو ينسج عنوان كتابه كان يضع نصب عينه ذائقة القارئ المتناغمة مع معطيات عصره على مختلف الصعد الثقافية والسياسية و الاجتماعية والدينية ، وأنَّ ذائقة القارئ العربي لا تعترض إذا ما توافر العنوان على الجرس الموسيقي أغراءً للمتلقي .على أن أهمية العنوان تكمن في كونه أول المؤشرات التي تدخل في حوار مع المتلقي فتثير فيه نوعا من الإغراء العلمي والفضول المعرفي فالعنوان الجزء الدال على النص وهذا ما يؤهله للكشف عن طبيعة النص والمساهمة في فك غموضه .

وعلى هذا فعندما نطالع عناوين مؤلفات تنتمي إلى حقب زمنية مختلفة نجد أنَّ المؤلف العربي حاول جاهداً أبراز مضمون كتابه من خلال اختيار العنوان الرشيق،العذب ،الموحي،المعبر،الدال وكيف لا والعنوان يمثل عتبة النص التي يتم الدخول منها إليه ووجهه الذي يدل عليه فالعنوان في اللغة :{عنت الكتاب وأعننته لكذا أي عرضته وصرفته إليه.وعن الكتاب يعنه عنا وعننته، كعنونته وعلونته بمعنى واحد مشتق من المعنى،وقال اللحياني عنت الكتاب تعنينا وعينته تعنيه، إذاعنونته،وسمي عنوانا لأنه يعن الكتاب من ناحيته ،ويقال للرجل الذي يعرض ولا يصرح ،قد جعل كذا وكذا عنوانا لحاجته:والعنوان الأثر وكلما استدللت بشيء تظهره على غيره فهو عنوان له} [٢]. وعنوان الكتاب بضم العين وكسرها وأصله :عُنّان ،كرُمّان ،فلما كثرت النونات قلبت احدها واواً وعن الكتاب يعنه عناً،عّننه تعنيناً،كتب عنوان[٣]. وكذا عنوان يعنونه قال علي بن بسام [٤] :

رأيت لسان المرء رافد عقله وعنوانه فأنظر بماذا تعنون

أما في الاصطلاح فهو الدليل الذي يكون {ظاهراً فيدل على ما هو في الباطن... ومنه قولهم الظاهر عنوان الباطن، والعنوان جملة من الكلمات تكون مقدمة لبحث أو قصة أو مفتاحا لعلم من العلوم أو مدخلا ،وعنوان الموضوع في المنطق هو مفهوم الموضوع و وصفه والموضوع في القضية المنطقية هو المسند إليه}[٥] . ومن هنا نفهم أنَّ تعريف العنوان لا يخرج عن دلالة القصد والإرادة

إلى جانب الظهور و الاعتراض . و إذا كان القصد والإرادة هي حقل اشتغال المرسل،فإن الظهور والاعتراض هو مجال اشتغال المتلقي [٦]. وانطلاقاً من هذا فإنّ العنوان لابد أن يرتبط بالنص الذي يعنونه ارتباطاً وثيقاً فيجعلنا ننظر إليه على أنه نص مختصر يتعامل مع نص كبير يعكس كل أغواره وأبعاده إذ يعد من مظاهر الإسناد والرابط . فالنص إذا كان بأفكاره المشتتة مسنداً فأن العنوان مسند إليه فهو الفكرة العامة،بينما الخطاب النصي يشكل الأفكار الأساسية للفكرة العامة التي يحتويها العنوان ،والعنوان في رأي جون كوهن يرتبط بالنص النثري الأدبي والعلمي أكثر من ارتباطه بالشعر القديم ذلك بسبب افتقار الشعر القديم إلى الوحدة العضوية على أنه يمكن الاستغناء عن العنوان في الشعر مادام ينبني على عدم الاتساق والانسجام ،بينما يكون الأمر معكوساً في النثر إذ يعتمد على توافر الاتساق والانسجام[٧]. وعلى أية حال فإن عنوان الكتاب الأدبي القديم أخذ يتطور تدريجياً مسايرةً مع العصر الذي تؤلف فيه الكتب، وهذا الأمر يتعالق مع التأليف بعلاقة طردية فكلما ارتقى التأليف ارتقى معه العنوان ، و انطلاقاً من هذا كله أقترن عنوان الكتاب الأدبي القديم بنوعية الدراسة التي يقوم بها المؤلف العربي فهي حينما تكون دراسة لم يسبق إليها أي جديدة مبتكرة فأن ذلك سيقوده إلى اختيار العنوان بسهوله ويسر إذ يأتي العنوان متناغماً ، منسجماً، متلائماً، متطابقاً مع موضوعه ويقوده كذلك إلى أن يكون العنوان موجزاً وخالياً من التعقيد اللفظي والمعنوي ، زد على ذلك البساطة التي تغلب على صياغته وهذا بخلاف العنوان الذي يختاره مؤلف ما لدراسة قد سبق إليهاالأمر الذي يؤدي في بعض الأحيان إلى التصنع في اختيار العنوان فيعمد إلى الزخرف اللفظي والمحسنات البديعية ومنها السجع والطباق والجناس ...الخ فيدبج بها عنوان كتابه وهنا يحدث الفارق بين الاثنين فمن الإيجاز إلى الأطناب مرة ومن البساطة إلى التعقيد مرة ثانية ومن البيان إلى الإبهام مرة ثالثة ويمكن أن نعد هذه ظاهرة تلفت الانتباه إليها . ومع ذلك فالعنوان الذي ينسب إلى مؤلف متقدم لا يخلو من بعض الهنات فيه على الرغم من اتصافه بالإيجاز و الوضوح و البساطة فهذا مثلاً (البيان والتبيين) وهو عنوان لأحد مؤلفات الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، قد أختلف مع مضمونه بعض الشيء ذلك أن مادته جاءت مبعثرة وأبوابه غير مبوّبة وموضوعاته متداخلة على الرغم من أهميته ولعل ظاهرة الاستطراد التي أنتهجها الجاحظ في تأليف كتابه قد أدت إلى ضياع البيان وبعثرة مباحثه فلا يكاد القارئ يجدها إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير إذ قال أبو الهلال العسكري (ت٣٩٥هـ) :{فلما رأيت تخلط هؤلاء الأعلام فيما راموا من اختيار الكلام ،ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ،و مكانه من الشرف والنبل،ووجدت الحاجة إليه ماسة، والكتب المصنفة فيه قليلة ،وكان أكبرها و أشهرها كتاب البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ،وهو لعمري كثير الفوائد ،جم المنافع لما أشتمل

عليه من الفصول الشريفة ،والفقر اللطيفة ،والخطب الرائعة ،والأخبار البارعة ،وما حواهُ من أسماء الخطباء والبلغاء ،وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة ، ونعوته المستحسنة ،إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه ،فهي ضالة بين الأمثلة، لا توجد إلا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير،فرأيت أن أعمل كتابي هذا مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه في صنعة الكلام نثره ونظمه}[٨]. و الملاحظ في هذا النص أن العسكري قد قرأ الكتب المصنفة في هذا الموضوع فوجدها قليلة من جانب والبلاغة فيها غير مستوفية لصنعة الكلام نظمهِ ونثره من جانب آخر، على الرغم من وجود كتاب مهم مثل (البيان والتبيين) إلا أنه حينما ألف كتاب (الصناعتين) إنما كان يأتي ذلك في ضوء منهج قائم على الربط بين السابق واللاحق، و البدء من حيث انتهى الآخرون، فكان كتابه جديراً في عنوانه ومضمونه في آن واحد .

ولاشك في إنّ هناك بدايات للتأليف عند العرب أخذت تتطور شيئاً فشيئاً، فبعد أن كان التأليف لا يعتمد التنظيم والترتيب والتبويب وتسوده الفوضى و التبعثر وعدم استقلالية المادة الخاصة بالتأليف على نحو ما جاء في البيان والتبيين، مثلاً نجده على العكس من ذلك ينحى منحى آخر إذ يمثل مرحلة متقدمة من مراحل التأليف وذلك في أواسط القرن الثالث الهجري ويظهر مثل هذا التطور في كتب ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ،ومنها(كتاب المعاني الكبير)إذ قسمه إلى عدة كتب كل كتاب منها يحمل عنواناً خاصاً به و يضم من الأشعار ما يندرج تحت ذلك العنوان، وكذلك كتابه عيون الأخبار وهو كتاب أخبار وقصص وحكايات ونصوص مختارة أجاد المصنف في جمعها وترتيبها وقد أشار إلى ذلك في مقدمته إذ قال: { وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغفل الأدب تبصرة،ولأهل العلم تذكرة،ولسائس الناس و مسوسهم مؤدباً،وللملوك مستراحاً... وهي لقاح عقول العلماء ،ونتاج أفكار الحكماء،و زبدة المخض ، وحليت الأدب،وأثمار طول النظر ،والمتخير من كلام البلغاء ،وفطن الشعراء ،وسير الملوك ،وآثار السلف جمعت لك منها ما جمعت في هذا الكتاب ،لتأخذ نفسك بأحسنها وتقومها بثقافتها،وتخلصها من مساوئ الأخلاق ، كما تخلص الفضة البيضاء من خبثها ،وتروضها على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم ،وتصل بها كلامك إذا حاورت وبلاغتك أذا كتبت ،و تستنجح بها حاجتك أذا سألت}[٩]. أما محتوى الكتاب فهو يتألف من عشرة أبواب ،جعل لكل باب عنواناً ،استوحاه من موضوعاته الداخلية ،وذكر هذه الأبواب في مقدمته فقال : {وأني حين قسمت هذه الأخبار و الأشعار وصنعتها ،وجدتها على اختلاف فنونها،وكثرة عدد أبوابها تجتمع في عشرة كتب ... فالكتاب الأول من العشرة المجموعة : كتاب السلطان ، والثاني كتاب الحرب ، والثالث كتاب السؤدد ، والرابع كتاب الطبائع

والأخلاق ، و الخامس كتاب العلم ، والسادس كتاب الزهد،والسابع كتاب الأخوان،والثامن كتاب الحوائج ،والتاسع كتاب الطعام ، والعاشر كتاب النساء} [١٠]. وهنا يتضح أثر العنوان في تقسيم الكتاب اتضاحا تاما ،إذ قسم المؤلف كتابه هذا إلى عشرة كتب ،كل كتاب منها يحمل عنواناً خاصاً به، وهو يدرج في كل كتاب منها الأشعار والأخبار التي يضمها موضوع العنوان ، ونرى في هذا التقسيم شيئاً من التنظيم يتبع أول مرة في كتب الأدب عند العرب .

هذا ومن المؤكد الذي لا يقبل الشك أنَّ التطور الحاصل في التأليف عند العرب سيترك أثره الواضح في عنوان الكتاب الأدبي القديم، أضف إلى ذلك ظاهرة التأثير والتأثر، إذ أنَّ معظم مؤلفي كتب الأدب كانوا شعراء أو علماء بالشعر، وهذا ما دفع الباحث إلى استقراء مجموعة من العناوين ليخرج بنتيجة مفادها أن العنوان لدى المؤلف العربي القديم قد جاء على وفق أنماط هي:

أولاً :عناوين مطبوعة

إنّ هذا النمط من العناوين لا يعنى بالصياغة اللفظية فعناوينه مبتكرة مثل موضوعاته، وبعبارة أخرى إن الجدة في اختيار موضوع الكتاب كان له الأثر الواضح في عنوان المؤلف فحين يكتب في موضوع جديد لا يواجه مشكلة في العنوان تدعوه إلى اختيار ألفاظه فضلاً عن أن المؤلف كان يهتم في هذا النمط بمطابقة العنوان مع المضمون و لعل ما يؤكد ذلك ما قاله قدامة بن جعفر(ت٣٣٧هـ): {العلم بالشعر ينقسم أقساماً فقسم ينسب إلى علم عروضه ووزنه وقسم ينسب إلى علم قوافيه ومقاطعه ،وقسم ينسب إلى علم غريبه ولغته ،وقسم ينسب إلى علم معانيه والمقصد به ،وقسم ينسب إلى جيده ورديئه وقد عنى الناس بوضع الكتب في القسم الأول وما يليه إلى الرابع عناية تامة ... ولم أجد أحداً وضع في نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتاباً،وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة...ولما وجدت الأمر على ذلك و تبينت أن هذا الأمر أخص بالشعر...رأيت أن أتكلم في ذلك بما يبلغه الوسع}[١١] . ويلاحظ من هذه العبارة ان عنوان كتاب نقد الشعر كان منبجساً من موضوعه الذي سهل من وضعه عدم السبق إليه إذ أدى ذلك إلى اعتماد الطبع في اختيار العنوان وكذلك الحال مع كتاب طبقات الشعراء لابن المعتز(ت٢٩٦هـ) ، إذ نص في ترجمته لمجموعة من الشعراء الذين عنى بهم في كتابه أنه يهدف إلى تسليط الضوء على المحدثين منهم بعد أن ملَّ الناس أخبار القدماء وأشعارهم لكثرة رواياتهم لها[١٢]. هذا و من الطبيعي أن أي عنوان لكتاب ما لابد أن يرتبط ارتباطاً وثيقاً باختيار الموضوع، وبعد أن يتم اختيار الموضوع وتحديده يقوم المؤلف بوضع العنوان له وهو في الأغلب الأعم يكون دالاً على مضمونه ، فالثعالبي (ت ٤٢٩هـ) ،مثلاً يعنون كتابه بـ(يتيمة الدهر في محاسن أهل

العصر) ليدل بعبارته الأخيرة على اقتصار كتابه على تراجم شعراء عصره فقط،وكذلك كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة)

لابن بسام الشنتريني الذي احتوى على تراجم للأدباء الأندلسيين فقط، وهناك مؤلفون قصروا بعض كتبهم في الحديث عن غرض شعري معين مثل ما وضع من كتب عديدة تناولت موضوع الحب والغزل فقط ، مثل كتاب(طوق الحمامة) لابن حزم(ت ٤٥٦ ه) ،وعلى هذا نرى في كل ما اخترناه من نماذج لعناوين متقدمة أنها كانت محكومة بموضوعاتها الجديدة التي سهلت من ملاءمة العنوان لمضمونه .

ثانياً: عناوين مصنوعة

لعل ما يميز هذا النمط من العناوين هو أنها ذات طابع شعري تعنى بالمستويين الجمالي والنفعي، ومن تلك العناوين العقد الفريد،الحيوان،رسالة الغفران،الإمتاع والمؤانسة،الموازنة،كليلة ودمنة، الأغاني،سقط الزند وهو ديوان شعر لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩ه) ،و ما يستحسن ذكره أن عنوان سقط الزند وما يتصف به من الشعرية إنما يرجع إلى أنَّ واضعه أديب شاعر ، الأمر الذي أثر في عنوانه فجاء على هذا النمط ، على أنه كان قاصداً لهذا العنوان فلعله أراد إيصال رسالة إلى القارئ مفادها أن هذا الشعر هو أول ما سمح به طبعه وليس غيره فربما قال شعراً قبله ولن يسمح به طبعه إذ قال الحاجي خليفة : {والسقط :ما يسقط من النار ،وطبعه بالزند الذي يقدح به النار،وجعله سقطاً لأنه أول ما يخرج من الزند .وهذا الشعر أول ما سمح به طبعه في ريق شبابه قد سماه سقط الزند تجوزاً أو استعارة } [١٣] . وهنا نلاحظ أن البيان له أثر واضح في العنوان ،لاسيما الاستعارة ،التي هي تشبيه حذف أحد طرفيه ،إما المشبه ،وإما المشبه به . وكذلك إذا نظرنا إلى عنوان كتاب آخر وهو كتاب العقد الفريد وجدنا الطابع الشعري جاء عاكساً لشخصية مؤلفه حيث ذكر في ترجمة ابن عبد ربه الأندلسي أنه كان شاعراً[١٤] . و من هنا يبدو أن الكاتب الشاعر ستتأثر عناوينه فتأتي على هذا النمط من الصياغة التي تخضع إلى التأويل من أجل الوصول إلى سبر أغوارها ، وإلى جانب ذلك فقارئ الكتب القديمة يرى أنها كانت تعمد إلى حيل مختلفة في سبيل شد المتلقي إليها والعمل على جذبه بطرق منها ما هو مستمد من الحقل الدلالي للحلي والجواهر مثل شذور الذهب و أطواق الذهب في حين نرى قسماً آخر ينتمي إلى حقل الذكورية أو الأنثوية مثل فحولة الشعراء وطبقات فحول الشعراء و ريحانة العاشق وعرائس المجالس ، ولعل هذه الحيل على اختلافها كانت تمثل الضمان الحقيقي في مسألة التشويق التي يمارسها الكاتب على متلقيه من خلال اشتغاله على عنصر الذوق والتداعيات الخاصة بكفاءة

المتلقي ومدى اتساع مداركه وقدراته عن طريق إغرائه بقراءة العنوان قراءة داله تستحضر مجموع الإيحاءات على وفق قانون يشترك فيه الكاتب والمتلقي وعلى العموم فللعنوان وظيفة مرجعية غايتها التأثير في المتلقي .

إنَّ العنوان لا يملك معنى ثابتاً فالكلمة بداية لها ذاكرتها المقرونة بما لذاكرة القارئ من دلالات وخبرات معها،ولكن هذه الدلالات تتعدل ذهاباً و إياباً في عملية القراءة ، أي أن الدلالات في العنوان تتغير مع كل نقلة عين في النص إلى أن تصل إلى ختام المقروء يرى في النص ما لا يراه غيره أثناء القراءة ذلك بسبب الإيهام الذي يمكن أن يسببه خطأ ما متعمد أو غير متعمد وشبيه بهذا ما أحدثه عنوان لكتاب قد أطلق عليه مؤلفه بـ (الفرج بعد الشِّدة) فأدى إلى قراءة مضللة للكتاب لأن الكاتب أتى بموضوع لا صلة له بالعنوان ، وخير مصداق على ذلك ما ذكره المحسن التنوخي (ت٣٠٤هـ)، إذ قال:{ووقع إلي كتاب لأبي بكر عبد الله بن محمد بن الدنيا قد سماه (الفرج بعد الشِّدة) في نحو عشرين ورقة والغالب فيه أحاديث عن النبي (ص) وعلى آله وصحبه وسلم وأخبار عن الصحابة والتابعين رحمهم الله تعالى يدخل بعضها في معنى طلبته ولا يخرج عن قصده وبغيته .و باقيها أحاديث وأخبار في الدعاء والصبر والأرزاق والتوكل ... وهو عندي خال من ذكر فرج بعد الشِّدة غير مستحق أن يدخل في كتاب مقصور على هذا الفن ...}[١٥]. ومن هنا يتضح اهتمام العرب بقضية العنوان والمعنون ومسألة المطابقة بينهما وما يعضد ذلك أيضاً ما ذكره الثعالبي متحدثاً عن كتاب سحر البلاغة إذ قال :{ثم أن هذا الكتاب المشتمل على الكتب الأربعة عشر مترجم بسحر البلاغة وسر البلاغة و أرجو أن يكون اسماً يوافق مسماه ولفظاً يطابق معناه}[١٦]. وكذلك ما قاله الشريشي (ت٦١٩هـ)، متحدثاً عن قدامة بن جعفر :{كان بليغاً مجيداً عالماً بأسرار صنعة الكتابة ولوازمها ،وله كتاب يعرف بسر البلاغة في الكتابة، وترجمته تدل على متضمنه}[١٧]. والأمثلة كثيرة على مسألة مطابقة عنوان الكتاب لمضمونه إلا أن هذه الفكرة لم تكن عامة عند المؤلفين جميعاً ، فقد التزم بها قسم منهم في حين أهملها قسم آخر. والذي نلاحظهُ هنا أن كتب النمط الأول للتأليف التزمت بالفكرة السابقة في معظمها فكانت عناوينها طبيعية دالة على مضمونها.

ثالثاً: عناوين مفرطة في الصنعة

إنَّ عناوين الكتب الأدبية بدأت منذ القرن الرابع الهجري وما بعده من القرون عند كثير من الأدباء والمؤلفين في آن واحد يسيطر عليها حب السجع ، وفي هذا النمط من الكتب نجد البديع قد أغري المؤلفون بالاستعانة بفنونه ويأتي في مقدمتها السجع ،وهو توافق الفاصلتين في الحرف

الأخير[١٨] . لقد جاءت عناوين كثيرة من الكتب مسجوعة متكلفة فيها شيء كبير من الغرور ويكفي أن نذكر تدليلاً على هذه العناوين ما يأتي:.

* يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر.
* دمية القصر وعصرة أهل العصر.
* الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .
* زينة الدهر وعصرة أهل العصر.
* خريدة القصر وجريدة العصر.
* المغرب في حلي المغرب .
* نهاية الأرب في فنون الأدب .
* صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

والناظر إلى هذه العناوين وما تحتها من مضمون يجد أن مؤلفيها قد التزموا بالسجع ،الأمر الذي أدى إلى انشغالهم بهذه الظاهرة إلى الحد الذي أضعف بعض الشيء مسألة المطابقة بين العنوان ومضمونه إذ يتضح هذا مثلاً في مواضع كثيرة من كتاب (خريدة القصر) للعماد الأصفهاني (ت٥٩٧هـ)، ومن ذلك ما جاء في تراجمه للشعراء ومن بين هؤلاء ابن المعلم الواسطي (ت٥٩١هـ) ،إذ حفل بترجمة مسجوعة واصفاً فيها شعر الشاعر فقال:{ كلامه حلو حالٍ، عالٍ غالٍ صفو من الرنق خالٍ ومنطقه منطق الفصاحة، ووِشاح الحسن والملاحة. ولسانه مبدي اللسن ومنشئ المقال الحسن، وقلبه قالب للمعاني قابل، وطل فضله عند الفضلاء وابل، فأين مهيار من أسلوبه؟ لو عاش شرب من كوبه، ولو سمع نظمه الرقيق، لصار عبده الرقيق، وبعلمه اعترف، ومن يمه اغترف؛ وهان ابن هانئ المغربي مع غرائبه، لو ركب خضم عجائبه}[١٩]. وهكذا دأب العماد الأصفهاني في كتابه على أن يترك بصمات الأديب الحاذق لصنعته، ليمتع ويشوق المتلقي، ظناً منه أن هذا سيأتي بالفائدة إلى جانب المتعة . ولعل ما يشفع لعناوين هذا النمط من الكتب وما يتلوها من مضامين هو أن بعضاً منها قد دغدغ ذوق المتلقي لهذه الكتب ذلك لما احتوت عليه من جدة الطرح في الطريقة والمادة إذ اعتمدت المحسنات اللفظية والمعنوية إلى جانب قيامها بتحديد الزمان أو المكان للمادة التي يقوم عليها التأليف ، ومصداق ذلك ما جاء في كتاب{ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر} إذ تحدث الثعالبي منوهاً على ما ينبغي أن يطمح إليه المؤلفون من أجل كسر قيد الجمود و السعي إلى التجديد الذي يرضي ذوق القارئ في ذالك العصر قائلاً: { فكم من كتاب فاخر عملوه ،وعقد باهر نظموه ،لا يشينه الآن إلا نبو العين من إخلاق جدته ،وبلى بردته ،ومج السمع لمرداته، وملالة القلب من مكرراته ،وبقيت محاسن أهل العصر التي معها رواء الحداثة ،ولذة الجدة ،

وحلاوة قرب العهد ،وازدياد الجودة على كثرة النقد ،غير محصورة بكتاب يضم نشرها ،وينظم شذرها ،ويشد أزرها ،ولا مجموعة في مصنف يقيد شواردها ،ويخلد فوائدها}[٢٠]. فالثعالبي هنا حرص على ذكر شعراء عصره مع نبذة قصيرة من أخبارهم ، وشيء من نثرهم في الوقت الذي لم يذكر ذلك غيره من المؤلفين إلا قليلاً بسبب تكرار ذكرهم للمتقدمين من الشعراء وعدم اعتنائهم بالمتأخرين منهم الأمر الذي نتج عنه تململ القارئ هذا بخلاف المفارقة التي احدثها الثعالبي بتحديد موضوع كتابه إلى جانب النكهة الكتابية إن صح هذا التعبير.

ومن الأهمية بمكان أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أن تكرار الكتابة أو التأليف في موضوعات أشبعت بالدراسة والبحث حري به أن يدفع المؤلف إلى اعتماد رؤية منهجية مبتكرة في التأليف ،وعلى هذا الأساس إنما يعود تكريس ظاهرة السجع في عناوين هذا النمط إلى أن أصحابها كانوا في الأغلب الأعم أدباء أي في العصور المتأخرة ، وكذلك ذوق العصر الذي كان كثيراً ما يرغب في هذا اللون من البلاغة لما فيه من حلاوة تجذب القارئ إليها. ومما تقدم يمكن القول أنَّ العنوان عمل أبداعي يقوم على حسن الاختيار بالتواطىء مع مضمون الكتاب على وفق رؤية منهجية تنظر إلى العنوان على أنه مثابة الرأس من الجسد .

الخاتمة: ـ

وهكذا فعنوان الكتاب الأدبي القديم كان ضرورة كتابية بوصفه عنصراً مهما من عناصر التأليف آنذاك ،إذ لم يكن محض الصدفة ،بل جاء وليداً لمخاضات عسيرة افرزها ودعا إليها الواقع الثقافي الذي ترك أثراً جلياً في مفاصل التأليف عند العرب ، ومنها العنوان الذي اتخذ أنماطاً كان في مقدمتها ثلاثة هي: {عناوين مطبوعة، وعناوين مصنوعة، وعناوين مفرطة في الصنعة} وإلى جانب هذا أهتم العرب بعلاقة المطابقة بين العنوان والمعنون ذلك من خلال قراءتهما من أجل الوصول إلى قوة أو ضعف هذه العلاقة، وارتباط ذلك برقي الفكر الذي وصل إليه التأليف حقبةً بعد اخرى.

الهوامش:

1-laseconde mains on le travail de la citation ,senile baris 1979:p251

٢- لسان العرب :مادة (عنن).

٣- ينظر: في الحديث عن (الكتاب):العقد الفريد ، ٤\٢٠١ ـ ٢٠٥ ،وزهر الآداب ،للحصري :١\١٤٢ ـ ١٥٠ .

٤ـ ينظر: ربيع الأبرار:ج٣\ ٢٦٥ـ٢٦٦ .

٥ـ الهادي إلى لغة العرب ،ج٢\ ٢٨٢.

٦- ينظر: العنوان و سيميوطيقا الاتصال الأدبي ، ص٢٢ .

٧ـ ينظر: السيموطيقا والعنونة ، ص ٩٧ .

٨ـ الصناعتين ،٤ـ٥ .

٩-عيون الأخبار ج١\ ٢ ـ٣ .

١٠ـ ينظر: نفسه مقدمة المؤلف ١\ك

١١ـ نقد الشعر ج١\٣

١٢ـ ينظر: طبقات الشعراء ٨٧

١٣ـ كشف الظنون :ج٢\ ٩٩٢ .

١٤ـ ينظر وفيات الأعيان ج١ \ص ١١٠ .

١٥ـ الفرج بعد الشِّدة ج١\٦ .

١٦ـ سحر البلاغة ،٨ .

١٧ـ شرح المقامات ج١\ ٢٠ .

١٨ـ جواهر البلاغة ، ص ٤٠٤ .

١٩ـ خريدة القصر، ج١\ ٤٣١.

٢٠ـ يتيمة الدهر، ج١\١٧.

المصادر والمراجع

- جواهر البلاغة ،أحمد الهاشمي،ط١٢،دار أحياء التراث العربي ،بيروت ـ لبنان ،(د.ت)
- خريدة القصر و جريدة العصر، قسم العراق،عماد الدين الأصفهاني (ت٥٩٧هـ) تحقيق محمد بهجة الأثري ،مجمع العلمي العراقي ١٣٧٥هـ،١٩٥٥م .
- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار،الزمخشري (ت٥٣٨هـ)تحقيق الدكتور سليم النعيمي ،بغداد ،١٩٥٥م.
- زهر الآداب وثمر الألباب ،الحصري القيرواني (ت ٤١٣هـ)تحقيق علي محمد البجاوي،ط٢،مصر ١٩٦٩م.
- سحر البلاغة وسر البراعة ،عبد الملك ابن منصور الثعالبي (ت٤٢٩هـ)تحقيق عبد السلام الحوفي، دار الكتب العلمية،بيروت لبنان (د.ت)
- السيميوطيقا والعنونة، جميل حمداوي ،عالم الفكر،م٢٥،ع٣، ١٩٩٧.
- شرح مقامات الحريري ،أحمد بن عبد المؤمن الشريشي(ت٦١٩هـ) ،نشر وتصحيح :محمد عبد المنعم خفاجي ،القاهرة ، ط١\ ،١٩٥٣ م.
- الصناعتين أبو الهلال العسكري ،(ت٣٩٥هـ)،تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم،المكتبة العصرية ،بيروت ١٤١٩هـ.
- طبقات الشعراء ،عبد الله بن المعتز، (ت٢٩٦هـ)تحقيق عبد الستار أحمد فراج ،القاهرة دار المعارف ط١\،١٩٥٦ .
- العقد الفريد ،ابن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٧هـ) تحقيق أحمد أمين و أحمد الزين و إبراهيم الأبياري،مصر،١٩٦٧م.
- العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي ، د .محمد فكري الجزار،إصدار،الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٩٨م .
- عيون الأخبار،ابن قتيبة الدينوري،(ت ٢٧٦هـ) دار لكتب العلمية بيروت،١٤١٨هـ.
- الفرج بعد الشِّدة ،المحسن التنوخي ،(ت٣٠٤هـ) تحقيق عبود الثالجي ،دار صادر،بيروت،١٣٩٨هـ،١٩٧٨م .
- كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون ،حاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ) ،د.ت .
- لسان العرب،ابن منظور،بيروت – لبنان ،دار صادر،ط١، ٢٠٠٠ .

- نقد الشعر،قدامة بن جعفر،(ت٣٣٧هـ) تحقيق:كمال مصطفى،القاهرة،ط٣، ١٩٧٩ .
- الهادي إلى لغة العرب، سعيد الكرمي،دارلبنان ،للطباعة والنشربيروت ط١\١٤١٢هـ١٩٩٢ م.
- وفيات الأعيان،وإنباء أبناء الزمان ،تأليف ابن خلكان ،تحقيق أحسان عباس،ط١، ١٩٧١م .
- يتيمة الدهرفي محاسن أهل العصر،أبو منصور الثعالبي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد القاهرة ،مطبعة السعادة ، ط٢ \١٩٥٦م .